ختم النبوة

الشيخ مرتضى مطهري

ترجمة
عبد الكريم محمود



دار المحجة البيضاء



مرتضى مطهري

ترجمة

عبد الكريم محمود

دار المحجة البيضاء دار الرسول الأكرم (ص)





بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان ظهور الدين الإسلامي متزامناً مع إعلان خلوده، ومع إغلاق سجل النبوة، وكان المسلمون دوماً يعتبرون ختم النبوة أمراً واقعاً، فلم يطرحوا على أنفسهم في أي من الأحوال سؤالاً حول هل أنه سيأتي بعد محمد «ص» نبي آخر أم لا؟ وحيث أن القرآن الكريم أعلن بصراحة انتهاء النبوة وكرر النبي هذا الكلام مرات كثيرة، فقد بات التفكير بظهور نبي آخر ـ لدى المسلمين ـ مخالفاً للإيمان بالإسلام، كما هو الحال في إنكار وحدانية الله وإنكار يوم القيامة.

وكانت محاولات علماء الإسلام ومساعيهم في هذا المجال منحصرة في أنهم كانوا يريدون التعمق في هذه الفكرة واكتشاف سر ختم النبوة.

إننا لن ندخل في بحث ماهية الوحي والنبوة، فمن المسلم به أن الوحي هو تلقي التوجيه وتسلّم عن طريق

اتصال الضمير بالغيب والملكوت، والنبي وسيلة للإتصال بين سائر الناس والعالم الآخر، وهو في الحقيقة جسر بين عالم الإنسانية وعالم الغيب.

والنبوة من الناحية الشخصية والفردية مظهر لاتساع أفق الشخصية الروحية لفرد من الناس وارتقائها، ومن الناحية العامة رسالة إلهية إلى الناس لقيادتهم تنقل إليهم بواسطة شخص منهم.

وهنا تواجهنا فكرة ختم النبوة بالتساؤلات التالية:

هل إن ختم النبوة وعدم ظهور نبي آخر بعد خاتم النبيين يعني تضاؤل الإستعدادات المعنوية للبشرية وهبوطها من الناحية الروحية؟ وهل أن الدنيا قد عجزت عن إنجاب أبناء ذوي صفات ملكوتية وقادرين على الإتصال بالغيبة والملكوت؟ وأن إعلان ختم النبوة يعني إعلان عقم الطبيعة تجاه أبناء كهؤلاء؟

ولما كانت النبوة تلبية لحاجة البشرية إلى الرسالة الإلهية حيث جددت هذه الرسالة في الماضي وفقاً لمقتضيات المراحل والأزمنة، فكان تعاقب ظهور الأنبياء والتجديد المستمر للشرائع والنسخ العديدة للكتب

السماوية، كل ذلك كان بسبب تغير حاجات البشر مرحلة بعد أخرى فكانوا في كل مرحلة بحاجة إلى رسالة جديدة ورسول جديد، مع هذا كله كيف يمكن الإفتراض أنه بإعلان ختم النبوة تقطع هذه العلاقة تماماً ويدمر الجسر الذي يربط عالم البشرية بعالم الغيب ولن تصل بعد ذلك أية رسالة إلى البشر ويتركون سدى؟

إضافة إلى كل ما تقدم، فقط ظهر ـ كما نعرف ـ في الفترة التي تفصل بين الأنبياء أصحاب الشرائع أمثال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، مجموعة من الأنبياء الآخرين كانوا يبلغون ويرجعون للشريعة السابقة عليهم حيث جاء آلاف الأنبياء بعد نوح مبلغين ومروجين لشريعته وكذلك بعد إبراهيم وغيره، فلو قبلنا ـ فرضاً ـ انقطاع النبوة التشريعية وقلنا إن الشرائع قد ختمت بالشريعة الإسلامية، فلماذا انقطعت النبوات التبليغية بعد الإسلام؟ لماذا ظهر كل هؤلاء الأنبياء بعد كل شريعة مبلغين ومروجين لها ومحافظين عليها، ولم يظهر بعد الإسلام ولو نبي واحد من هذا القبيل؟

تلك هي التساؤلات التي تنشأ عن فكرة ختم النبوة،

والإسلام، الذي عرض هذه الفكرة قد أعطى جواب هذه التساؤلات، حيث طرح فكرة ختم النبوة وجسدها بشكل لم يقض فقط على أي إبهام وتردد بشأنها بل أخرجها على شكل فلسفة عظيمة.

فليست فكرة ختم النبوة ـ من وجهة نظر الإسلام ـ دليلاً على انحطاط البشرية وتضاؤل استعداداتها وعقم الدنيا ولا هي تدل على استغناء البشر عن الرسالة الإلهية، ولا هي غير متوافقة مع تلبية حاجات البشر المتغيرة في مختلف المراحل والأزمنة، بل أن لها سبباً آخر وفلسفة أخرى.

ويجب قبل كل شيء أن نتعرف على حقيقة ختم النبوة كما رسمها الإسلام وندرسها ثم نحصل على أجوبة تساؤلاتنا.

إننا نقرأ في سورة الأحزاب، الآية (٢٠) ما يلي:

﴿ما كان محمد أبا أحد، من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[١].

---

(١) كان (التبني) من عادات العرب وبعض الشعوب الأخرى وقد نسخ الإسلام هذه العادة التي كان الولد المتبنى =

وهـذه الآية وصفت محمـداً (ص) رسمياً بصفتـه خاتم النبيين.

وكلمة (خاتم) في تركيبها من حيث اللغة العربيـة تعني الشيء الـذي ينهون بـه شيئـاً مـا، فـالختم الـذي تختم بـه الرسالة بعد غلقها كان يسمى (خاتماً) حسب هذه القاعدة، وحيث أنهم كـانوا يكتبـون على ظهر الخـاتم أسمـاء هم أو شعاراتهم وبعد ذلك يختمون بها الرسائل لذا سموا الخـاتم بهذا الإسم.

وفي القـرآن، وأينمـا استعمـل مصـدر (الختم) وبـأي شكل كان، فإنه يعطي مفهوماً عن الإنتهاء أو الإغلاق فمثلاً نقرأ في الآية «٥» من سورة يس:

﴿اليـوم نختم على أفـواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشهـد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾..

= يعامل ـ بموجبها ـ في الإرث والعلاقات العائلية كالإبن الحقيقي، وقد كان لرسول الله غلام اسمه «زيد بن حارثة» كانوا يعدونه ابناً لـرسول الله بـالتبني وكانـوا يتوقعـون ـ كالعـادة ـ أن يتصرف النبي الأكرم مع ولـده المتبني كالـولد الحقيقي كمـا كانـوا يفعلون هم وهذه الآية تقول: لا تنادوا محمداً أبا أحد من رجالكم ـ زيـد بن حارثة أو غيره ـ بل اعتبروه فقط رسول الله وخاتم النبيين.

لهجة الآية ـ موضع بحثنا ـ توحي بأن انتهاء النبوة. بمحمد كان لدى المسلمين أمراً معروفاً قبل نزول هذه الآية فكما كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله كانوا يعرفونه أيضاً خاتماً للنبيين، وهذه الآية تذكرهم فقط أن لا يعتبروه أباً لأحد بل ينادونه بصفته الحقيقية أي رسول الله وخاتم النبيين، فهي تشير فقط إلى جوهر فكرة ختم النبوة ونواتها المركزية ولا تضيف إليها شيئاً.

جاء في الآية (٩) من سورة الحجر:

﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

في هذه الآية جاء الحديث حاسماً بشكل يقل نظيره، عن بقاء القرآن محفوظاً من التحريف والتغيير والفناء.

من أسباب تجديد الرسالة وظهور الأنبياء الجدد التبديلات والتحريفات التي كانت تحدث لتعليمات الأنبياء وكتبهم المقدسة ولهذا كانت تلك الكتب والتعليمات تفقد صلاحيتها في هداية الناس، فكان الأنبياء يحيون السنن المنسية ويصلحون التعليمات المحرفة لمن سبقهم.

وفضلاً عن الأنبياء الذين لم يكونوا أصحاب كتب

وشرائع وقوانين، بل تابعين لأنبياء أصحاب كتب وشرائع (مثال ذلك جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم وحتى زمان موسى وجميع الأنبياء من زمن موسى إلى زمن عيسى) فإن الأنبياء أصحاب القوانين والشرائع كانوا أيضاً يؤيدون أكثر مقررات الأنبياء السابقين لهم، ولم يكن تتابع ظهور الأنبياء نتيجة لتكامل الظروف الحياتية للبشر وحاجتهم إلى الرسالة الجديدة والموجه الجديد فحسب، بل كان غالباً ـ نتيجة لفناء الكتب والتعليمات السماوية وتبديلها.

لقد كان البشر قبل بضعة آلاف من السنين عاجزين عن حفظ ميراثهم العلمي والديني، ولا يمكننا انتظار شيء غير هذا منهم، فعندما يبلغ البشر مرحلة من التكامل تمكنهم من الحفاظ على ميراثهم الديني سالماً فعند ذاك ينتفي السبب الرئيس لتجديد الرسالة وظهور النبي الجديد، فيتوفر الشرط اللازم (وليس الشرط الكافي) لبقاء الدين خالداً.

والآية ـ أعلاه ـ تشير إلى انتقاء أهم سبب لتجديد النبوة والرسالة منذ نزول القرآن، وهي في الحقيقة تعلن عن تحقق أحد أركان ختم النبوة.

إن القرآن كما نعلم جيداً هو الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية في العالم الذي بقي سالماً وصحيحاً بالتمام والكمال، وبالإضافة إلى ذلك فإن مقداراً عظيماً من سنة الرسول بقي بأيدينا ـ بشكل مؤكد لا يقبل الشك محفوظاً من آفات العصور والأيام، وسوف نوضح ـ طبعاً ـ فيما بعد أن الوسيلة الإلهية لبقاء كتاب المسلمين السماوي محفوظاً، هي نمو البشر وقابليتهم في هذه المرحلة مما يدل على نوع من البلوغ الإجتماعي لإنسان هذا العصر.

والحقيقة أن من أركان الخاتمية البلوغ الإجتماعي للبشر بدرجة تمكنهم من الحفاظ على ميراثهم العلمي والديني ويبادرون بأنفسهم إلى نشره وتبليغه وتعليمه وتفسيره، وسنبحث هذا الموضوع فيما بعد.

هناك إصرار عجيب ـ في القرآن كله ـ على أن الدين، منذ ابتدأ العالم وحتى ينتهي، واحد لا أكثر، وإن جميع الأنبياء قد دعوا البشر إلى دين واحد، حيث جاء في الآية (١٣) من (سورة) الشوري:

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا

إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾.

والقرآن يسمى - في كل حين - هذا الدين الذي دعا الأنبياء من آدم وحتى الخاتم - الناس إليه «الإسلام» وليس المقصود من ذلك أنه كان يسمى في كل الأزمنة بهذا الإسم، وإنما المقصود أن الدين ذو ماهية وحقيقة، أفضل معرف لها كلمة «الإسلام».

يقول الله تعالى في الآية (٦٧) من سورة آل عمران حول إبراهيم:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾.

ويقول في الآية (١٣٢) من سورة البقرة حول يعقوب وأبنائه:

﴿وإذا قال يعقوب لبنيه يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

وآيات القرآن كثيرة في هذا المجال، لا حاجة لذكرها جميعاً.

وبطبيعة الحال اختلف الأنبياء مع بعضهم في أجزاء من

القوانين والشرائع، وحيث يعتبر القرآن الدين واحداً فإنه في الـوقت نفسه يتقبـل اختـلاف الشـرائـع والقـوانين في بعض المسائل حيث يقول في الآية (٢٨) من سورة المائدة:

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾

ولكن من حيث أن المبادىء الفكرية والعلمية التي دعـا الأنبياء إليها كانت واحدة وتـدعو جميعهـا الناس إلى طـريق واحـد وهدف واحـد، لـذلـك لم يكن لاختـلاف الشـرائـع والقوانين جزئياً تأثير على جوهر الطريق ماهيته والذي سمي في منطق القرآن بـ «الإسلام».

وتفاوت تعليمات الأنبيـاء واختلافهـا فيما بينهـا من نوع الإختلاف بين المدارس الفلسفية أو السياسية أو الإجتماعيـة التي لا تحـوي أفكاراً متنـاقضـة، فـالأنبيـاء جميعـاً يتبعـون مدرسة واحدة ويعتمدون منهجاً واحداً.

وتفـاوت تعليمات الأنبيـاء فيما بينهـا هـو إمـا من نـوع التفـاوت بين دروس الصفـوف العليـا والـدنيـا، أو من نـوع التفاوت في تنفيذ مبدأ واحد في ظروف وأوضاع مختلفة.

إننا نعلم أن التلميذ في الصفوف العليا لا يـواجه أبـداً مسائل لم يواجهها من قبـل، بل إن تصـوره حول المسـائل

التي تعلمها سابقاً وجسدها بشكل معين في ذهنه الطفولي، ينقلب في بعض الأحيان، وتعليمات الأنبياء أيضاً بهذه الصورة.

التوحيد يمثل المبدأ والحجر الأساس لبناء كان الأنبياء يعملون لإقامته ولكن هذا التوحيد نفسه ذو درجات ومراتب، فما يجسده العاصي في ذهنه حول الإله الواحد ليس ما يتجلى في قلب العارف، وحتى العارفين لا يستوون في درجاتهم.

«لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»[1].

وبديهي أن الآيات الأولى من سورة الحديد والأخيرة من الحشر وسورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ لم يكن يستوعبها الناس قبل بضعة آلاف من السنين بل حتى قبل ألف سنة، إن أفراداً معدودين من أهل التوحيد يقربون أنفسهم إلى عمق هذه الآيات، وقد ورد في (الآثار) الإسلامية:

أن الله عز وجل علم أنه سيكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى قل هو الله أحد والآيات من سورة

---

(١) سفينة البحار، كلمة ذر.

الحديد إلى قوله: ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾[1].

الشكل التنفيذي لمبدأ عام يتفاوت في الظروف المختلفة، وقد كان كثير من اختلاف الأنبياء اختلافاً في شكل التنفيذ وليس في روح القانون، وهذا موضوع سوف نتحدث عنه فيما بعد.

القرآن الكريم لم يورد أبداً كلمة (الدين) بصيغة الجمع (أديان) فالدين في القرآن مفرد دائماً لأن الذي كان له وجود ولا يزال كذلك هو الدين وليس الأديان.

بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يصرح أن الدين من مقتضيات الفطرة ونداء الطبيعة الروحية للبشر:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ (الروم: ٣٠).

ترى كم نوع من الفطرة والطبيعة يمكن للبشر أن يمتلكوه؟ إن موضوع وحدانية الدين منذ بداية العالم وحتى نهايته وتبعيته لفطرة البشر وطبيعتهم التي هي أيضاً لا يمكنها أن تزيد عن واحدة تحمل في داخلها سراً كبيراً

---

(١) أصول الكافي ج ١ ص ٩١.

وفلسفة عظيمة، وتعطينا تصوراً خاصاً حول التكامل، إننا نعرف جميعاً حكمة التكامل، فالحديث في كل حين عن التكامل، تكامل العالم، تكامل الأحياء، وتكامل الإنسان والجميع.

ما هو هذا (التكامل) وكيف يحدث؟ هل هو مجموعة من الأسباب التصادفية التي تؤدي إلى التكامل؟ أم أن في طبيعة ذلك الشيء الذي يتكامل ميلاً وانجذاباً نحو التكامل، حيث اختار طريقه وعينه سلفاً؟ هل أن الحركة التكاملية تسير على خط معين ومشخص نحو هدف معروف؟ أم أن هذه الحركة تتأثر بالأسباب التصادقية فتسير كل مرة على خط معين وتغير اتجاهها باستمرار ولا تملك أي هدف ومقصد؟

إن مسيرة تكامل الكون والإنسان والمجتمع - في نظر القرآن مسيرة موجهة وهادفة وتسير على خط يسمى الصراط المستقيم وهي معلومة المبدأ والمسير والمنتهى.

فالإنسان والمجتمع متغيران ومتكاملان ولكن الطريق وخط المسير واحد ومستقيم ومعروف.

﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل

فتفرق بكم عن سبيله﴾. الأنعام: ١٥٣.

خط واحد بدءاً وانتهاءاً
وخلق الله عليه مسافرون

ولا يتخذ تكامل الإنسان شكلاً يتأثر في كل زمان بمجموعة من الأسباب ـ صناعية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية ـ فيتحرك في طريق معين ويغير مسيره واتجاهه دائماً.

إن إصرار القرآن الشديد على أن الدين واحد واعترافه بطريق واحد فقط، ونظرته إلى اختلاف الشرائع والقوانين على أنه متعلق بالخطوط الفرعية، تستند جميعاً إلى هذا المبدأ الفلسفي.

والبشر في مسيرهم التكاملي كالقافلة التي تتحرك في طريق معين نحو مقصد معلوم ولكنها لا تعرف الطريق فتصادف في كل فترة شخصاً يعرف الطريق، وبعد أن تستدل منه عليه تطوى من الطريق عشرات الكيلو مترات حتى تصل مكاناً تحتاج فيه مجدداً إلى دليل جديد، وبعد أن تأخذ توجيهات منه يضاء أمامها أفق جديد فتطوى عشرات أخرى من الكيلو مترات بما أخذته من توجيهات،

وهكـذا حتى تخلق لديهـا تدريجيـاً قابليـة أكبـر في التعلـم فتصـل إلى شخص تأخـذ منه «الخـارطـة الشاملة» فتستغني دوماً بتلك الخارطة عن دليل جديد.

وحيث وضـح القرآن أن طـريق البشـر مستقيم ومعلوم، وأن جميـع الأنبياء يهـدون إلى هدف واحـد وطـريق واحـد بجميـع اختـلافـاتهم في التـوجيـه وإعـطاء المعـالم حسب وضعهـم ومـوقعهم الزماني والمكاني فقـد عبد طـريق ختم النبوة وأوضح ركنـاً آخر من أركـانه، لأن ختم النبـوة معقول وقـابل للتصـور حين يكون خط سيـر هـذا الإنسـان المتغيـر المتكامل مستقيماً وقابلاً للتشخيص، أما إذا كـان كالإنسـان نفسـه مضطربـاً يعيش كـل لحـظة في نقـطة معينـة، بحيث يكـون دائماً قـابلاً للتغييـر والتبـديـل ولا تعـرف نهـايتـه ولا مقصـده ومسيره، ويسيـر في كل فتـرة على طريق مختلف، فمن البـديهي أن لا يكون ختم النبـوة ـ باعتبـاره تسلم خطة وخارطة شاملتين ودائمتين ـ معقولاً وقابلاً للتصور.

جاء في الآية ١٢٣ من سورةالبقرة:

﴿وكـذلك جعلنـاكم أمـة وسـطا لتكـونـوا شهـداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

أمة الإسلام الحقيقة ـ في نظر القرآن ـ أمة وسط ومعتدلة، وبديهي أن الأمة الوسط والمعتدلة المتوازنة قد ربتها التعاليم الوسط والمعتدلة، فهذه الآية تبين ميزة الأمة الخاتمة والتعاليم الخاتمة وخصوصيتها في كلمة واحدة وهي: الوسطية والتعادل.

وهنا يبرز سؤال يقول: ألم يكن سائر الأنبياء أصحاب تعليمات متوازنة؟ ولجواب هذا السؤال لا بد من أن نذكر ما يلي:

ليس الإنسان المخلوق الوحيد على وجه الأرض، ولا هو المخلوق الوحيد الذي يعايش حياة اجتماعية، بل هناك مخلوقات أخرى تعايش حياة اجتماعية وتمتلك مجموعة من المقررات والأنظمة والتشكيلات الدقيقة، ولم تمر حياة هذه المخلوقات بأدوار من قبيل عصر الغاب، العصر الحجري، العصر الحديدي، عصر الذرة، وغير ذلك، فمنذ أن وجد نوعها كانت تمتلك هذه التشكيلات والأنظمة التي تمتلكها الآن، فالإنسان وحده الذي بدأت حياته من الصفر وتسير إلى اللانهاية وفقاً للآية: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ (النساء: ٢٨).

الإنسان ابن الطبيعة الرشيد والبالغ ولذا فهو حر ومختار ولا حاجة له بالقيمومة والإشراف المباشر والتوجيه الإجباري لقوة غامضة تدعى الغريزة، فما يفعله سائر الإحياء بقوة الغريزة التي لا يمكنها التمرد عليها، يفعله الإنسان في جو العقل الحر والقوانين المتفق عليها:

﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ (الدهر: ٣).

ويكمن سر وجود الإنحراف والسقوط والتوقف والإنحطاط لدى الإنسان وعدم وجوده لدى سائر الأحياء في هذه النقطة.

أو خلافاً لسائر الأحياء التي هي ساكنة في مكانها ولا تستطيع أن تقدم نفسها نحو الأمام أو تسحب نفسها إلى الخلف أو تنحرف يميناً أو شمالاً، أو تسرع في حركتها أو تبطيء، فإن الإنسان قادر على التقدم نحو الأمام أو العودة إلى الوراء والإنحراف نحو اليمين أو الشمال، وقادر على أن يسرع أو يبطىء وفي النهاية قادر على أن يكون عبداً شاكراً أو متمرداً كافراً وعليه فهو دائماً في تردد بين الإفراط وتفريط.

والمجتمع الإنساني نراه أحياناً جامداً وساكناً وأسير العادات التي تقيد الأيدي وتكبل الأرجل إلى درجة يحتاج فيها إلى قوة تفك عنه القيود وتحركه وأحياناً أخرى تبلغ عنده الرغبة في التجديد درجة ينسى فيها سنن الخلق ونواميسه، وأحياناً يغرق في الغرور والتكبر وحب الذات فتبرز ضرورة وجود قوة تسوقه نحو الزهد وترويض النفس وعدم الإستئثار بنفسه ومراعاة حدوده وحقوق الآخرين، ويتخذ أحياناً طبيعة اللامبالاة وعدم الإلتزام حتى لا يبقى سبيل غير إحياء همته وشخصيته وإحساسه بمراعاة الحقوق، وبديهي أن لكل من سرعة الحركة وبطئها أو الإنحراف نحو اليمين أو اليسار برنامجاً خاصاً به، ففي المجتمع المنحرف نحو اليمين نحتاج إلى قوة مصلحة مائلة نحو اليسار والعكس بالعكس. ولهذا كان دواء زمان معين وقوم ما ومرحلة خاصة داءاً وبلاءاً مزمناً لزمان آخر وقوم آخرين وهذا سر كون الرسالات تبدو مختلفة وأحياناً متناقضة في الظاهر فيكون أحد الرسل للحرب وآخرهم للسلم أحدهم رسول المحبة والآخر رسول العنف والصلابة، أحدهم رسول ثوري والآخر محافظ، أحدهم مبك والآخر مضحك، وهذا أيضاً سر كون تعليمات مثل هؤلاء الأنبياء

مؤقتة، ومن البديهي أنه مع جميع ما بين هـذه الرسـائل من تناقض في الأسلوب، لا وجود للتناقض والإختلاف بينها في الهدف، فالهـدف واحد وهـو العودة إلى التـوازن والوصـول إلى الطريق الرئيس.

والقرآن الكريم - في إيـراده قصص الأنبياء - يبين تمـاماً إن كـلا منهم، ومع اشتـراكهم في تعليمـاتهم حـول المبـدأ والمعـاد، كان يستنـد على نقطة خـاصة يصـر عليهـا وكـان مأموراً بتنفيذ برنـامج معين، ويتضـح هذا المـوضوع جيـداً بعد مطالعة القصص القرآني.

الخطر الذي يسببه المصلحون الإجتماعيون يأتي غالبـاً من أنهم يظهرون في مجتمع متطرف أو محافظ أو مائل نحو اليمين أو الشمـال فيبدأون عملهم المقـدس ولكنهم ينسـون أن خـطة معينـة قـابلة للتنفيـذ لمـدة محـدودة فقط، ويجب العمـل مع المجتمـع المتطرف أو المحـافظ أو اليسـاري أو اليميني بقـدر يعيده إلى تـوازنه وإلا فسـوف يكون في ذاتـه موجباً لسقوط المجتمع وانحرافه من ناحية أخرى.

بعد هذا التوضيح يمكننا التقرب من مفهوم الآية موضع البحث.

تختلف رسـالـة نـبـي الإسـلام عن جميـع الـرسـالات الأخرى في أنها قـانون وليست خـطة، فهي دستور للبشـرية ولا تختص بمجتمع متطرف أو محافظ أو يميني أو يساري.

الإسـلام خطة شـاملة وجامعـة وكلية ومعتـدلة ومتـوازنة

تحوي جميع الخطط الجزئية والقابلة للتطبيق في جميع الأحوال، فما كان يعمله الأنبياء في السابق حيث كانوا يأتون بخطة خاصة لمجتمع معين من قبل الله، يجب في مرحلة الإسلام أن يفعله العلماء وقادة الأمة مع فارق واحد هو أن العلماء والمصلحين يخططون البرامج الخاصة ويضعونها قيد التنفيذ بالإستفادة من مصادر الوحي التي لا تنفد.

القرآن كتاب يحمل في طياته روح جميع التعليمات المؤقتة والمحدودة للكتب السماوية الأخرى والمتمثلة في النضال ضد أنواع الإنحراف والعودة إلى التوازن، ولذا يعرف القرآن نفسه مهيمناً وحافظاً وحارساً لسائر الكتب السماوية:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾. المائدة: ٢٨.

يستنتج من النصوص الإسلامية أن جميع الأنبياء ـ ولكونهم ممهدين لظهور النبوة الشاملة والخاتمة والدستور الإلهي الواحد.

كانوا مأمورين أن يبشروا أممهم بإكمال الدين وإتمامه

في مرحلة الخاتمية، وقد أخذ الله عهداً ـ كهذا من جميع الأنبياء، وفي نهج البلاغة الخطبة الأولى بيان رائع بهذا الصدد:

(ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق مسمى له من بعده أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الأباء وخلفت الأبناء إلى أن بعث الله محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده).

وقد ورد في هذا المجال عن النبي الأكرم حديثان لطيفان حيث قال: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)(١). وقال: (آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة)(٢).

---

(١) البحار ج ٦ ص ١٦٦، صحيح مسلم ج ٣ ص ٧.

(٢) علم اليقين للفيض ص ٥، سفينة البحار باب «لواء»، جامع الصغير ج ١ ص ١٠٧.

وسبب هـذا السبق والتقدم يـوم القيـامـة وكـون جميـع الأنبياء في ذلك العالم تحت لواء هذا النبي هو أنهم جميعاً مقـدمات وهـذا نتيجة، فـوحي أولئك كـان مؤقتاً في حـدود برنامج واحد ووحي هذا النبي بمستوى دستور شامل ودائم، وقد قال عـظماء الإسـلام بهذا الصـدد أقوالاً بـديعة وجميلة وفقـاً لهاتين العبـارتين مستلهمين من مبدأ آخـر من مبـادىء المعـرفة الإسـلامية وهـو أن ما يـظهر في العـالم الآخر هـو الظهور الملكوتي لحقائق هذا العالم.

يقول أين الفارض المصري مشيراً إلى مضمـوني هذين الحديثين:

وإنـي وإن كـنـت ابـن آدم صـورة
فـلي فـيـه مـعـنـى شـاهـد بـأبوتـي
وكـلهـم عـن سـبـق مـعـنـاي دائـر
بـدائـرتـي أو وارد مـن شـريـعـتـي
ومـا مـنـهـم إلا وقـد كـان داعـيـاً
بـه قـومـه لـلحـق عـن تـبـعـيـتـي
وقـبـل فـصـالـي دون تـكـليـف ظـاهـري
ختمت بشـرعـي المـوضـحي كـل شـرعـة

ويقول المولوي في هذا المضمون:

الغصن - في الظاهر - أصل الثمر
ومن أجله - في الباطن - وجد
إن لم تكن تأمل وترغب الثمر
متى غرست - أيها البستاني - الشجر؟
ففي المعنى ولد من الثمر ذاك الشجر
ولو كان في الشكل وجد من شجر
المصطفى الذي قال: «آدم والأنبياء
كلهم خلفي الذي خلفي تحت اللواء»
وهنا يختفي الرمز ذو الفنون
لقوله: نحن الآخرون السابقون
إن كنت في الشكل من آدم ولدت
ففي المعنى أنا جد الجدود
وفي المعنى مني أبي قد ولد
وإذن ولد الشجر في المعنى من ثمر
فكر كان أولاً وأخيراً صار عمل
الفكر الذي هو وصف الأزل

ويقول الشبستري:

خط واحد بدءاً وانتهاءاً
وخلق الله عليه مسافرون
وفيه الأنبياء كرعاة الإبل
أولاء يوجهون القافلة
ومنهم صار سيدنا أميراً
فهو الأول في ذلك والآخر
أحد تجلى في ميم أحمد
«وهنا جاء الأول كالآخر
بين أحمد وأحد ميم فقط
وفي هذا الميم يكمن العالم
وقد وجب عليه ختم هذا الطريق
فأول منزل له «أدعو إلى الله)
فمقامه الواسع يجمع الجموع
وجماله المنعش جمع الشموع
فهو المتقدم والقلوب تتبعه
قد ملك الأرواح حجره

وقد تحدث القرآن الكريم عن المبدأ الذي يقضي بأن يبشر الأنبياء السابقون بالذين يأتون من بعدهم ويؤمنوا بهم ويسلموا بذلك (وخاصة خاتم الأنبياء) وأنه يجب عليهم

تبليغ أممهم بذلك وأعدادهم لتعليمات الأنبياء القادمين، وكذلك مبدأ تصديقه الأنبياء اللاحقين بالسابقين، وإن الله قد أخذ عهداً شديداً من الأنبياء على هذا التبشير والتسليم والتأييد والتصديق، هكذا:

(وإذا أخذ الله ميثاق البنين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم أصرى قالوا بلى قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين).

إن الآصرة الموجودة بين النبوات واتصالها ببعضها يدلان على أن النبوة تسير سيراً تدريجياً نحو التكامل وإن آخر حلقة من حلقات النبوة تمثل أعلى قمة فيها، يقول العارفون المسلمون: (الخاتم من ختم المراتب بأسرها) أي أن النبي الخاتم هو الذي اجتاز جميع المراحل ولم يبق وحيه طريقاً إلا سلكه ولا بقعة إلا كشفها، ولو افترضنا أن جميع المسائل المختصة بعلم من العلوم قد اكتشفت فلن يبقى بعد ذلك مجال للتحقيق جديد واكتشاف جديد، وهكذا هي المسائل المتعلقة بالوحي فبكشف آخر الأواصر الإلهية لا يبقى مجال لكشف جديد ونبي جديد، فمكاشفة

الرسالة المحمدية أكمل مكاشفة يمكن أن يقوم بها إنسان وهي آخر مراحلها وبديهي أن أية مكاشفة أخرى بعد تلك المكاشفة، لن تكون جديدة وهي كالسير في أرض سير عليها من قبل، ولن تحتوي على كلام جديد وموضوع جديد فآخر الكلام هو الذي ورد في تلك المكاشفة:

﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ الأنعام: ١١٥.

ينقل المرحوم الفيض في علم اليقين صفحة (١٠٥) عن أحد الرجال العظام:

«إن الهدف في فطرة الناس هو الوصول إلى مقام القرب الإلهي ولن يتحقق ذلك إلا بتوجيهات الأنبياء ولهذا تعتبر النبوة جزءاً من نظام الوجود، وطبيعي أن المقصود هنا هو الدرجة العليا وآخر درجات النبوة وليس أولها، فالنبوة تكتمل تدريجياً طبقاً لسنة الله كما تبنى عمارة تدريجياً. كما أن السلالم والجدران ليست الهدف في بناء العمارة بل الهدف هو الشكل الكامل للبناء، فإن النبوة كذلك أيضاً والهدف فيها صورتها الكاملة حيث تختم وتنتهي ولا يزاد عليها لأن الزيادة على الكمال نقص فالأصبع الإضافي يبقى

بلا عمل وقد أشار النبي الأكرم في حديث معروف إلى هذا المعنى قائلاً: إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخل فيها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فإنا موضع هذه اللبنة ختم بي الأنبياء»[1].

حديثنا السابق يمكنه أن يرسم صورة عن فكرة ختم النبوة كواحدة من الأفكار الإسلامية ويبين أسسها وأركانها.

قد عرف أن فكرة ختم النبوة تقوم على:

أولاً: أن أساس الدين موضوع في طبيعة البشر، فطبيعة جميع الناس واحدة والمسيرة التكاملية للبشر مسيرة ذات هدف تسير على خط واحد مستقيم ومعلوم وعليه فإن حقيقة الدين واحدة لا أكثر تمثل الرغبات الفطرية وتوجه البشر نحو الطريق القويم.

ثانياً: إن خطة معينة ـ شريطة أن تكون فطرية وجامعة وشاملة ومصونة من التحريف والتبديل ومقرونة بحسن التشخيص والتطبيق في مرحلة التفيذ ـ يمكنها أن تكون

(١) هكذا ورد الحديث في مجمع البيان بعد الآية (٢٥) من سورة الأحزاب نقلاً عن صحيحي البخاري ومسلم.

على الدوام دليلاً مفيداً مولـده لجميع المشاريع والخطط والقوانين الجزئية اللامتناهية، والبحوث القادمة سوف توضح هذا الموضوع أكثر.

والآن نبحث التساؤلات التي أشير إليها في بداية الحديث ونجيب عليها.

ابواب السماء:

أول سؤال ينتج عن فكرة ختم النبوة يتعلق بعلاقة الإنسان بعالم الغيب، إذ كيف أمكن للإنسان الأول مع بدويته وبساطته أن يتصل بعالم الغيب عن طريق الوحي والإلهام وتفتح بوجهه أبواب السماء في حين حرم الإنسان المتقدم المتكامل الحديث عن هذه الموهبة وأغلقت بوجهه تلك الأبواب؟

هل هبطت استعدادات البشر المعنوية والروحية حقاً؟ وأصيبت البشرية بالإنحطاط من هذه الناحية؟

لقد جاءت هذه الشبهة من الظن أن الإرتباط والإتصال بعالم الغيب يقتصر على الأنبياء وأنه يجب مع انقطاع النبوة قطع أي نوع من العلاقة المعنوية والروحية بين عالم الغيب وعالم الإنسانية.

ولكن هذا الظن لا أساس له مطلقاً، فالقرآن الكريم لا يشترط اقتراناً بين الإتصال بالغيب والملكوت وبين مقام النبوة كما أنه لا يعترف بدلالة فرق العادة وحده على النبوة، فالقرآن الكريم يذكر أشخاصاً كانوا يحيون حياة معنوية عالية فكانوا يكلمون الملائكة وتصدر منهم أمور خارقة دون أن يكونوا أنبياء وأفضل مثال على ذلك مريم بنت عمران أم عيسى المسيح التي نقل عنها القرآن قصة مدهشة، وكذلك يقول القرآن عن أم موسى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك﴾[1].

ونحن نعرف أن أم عيسى لم تكن نبية ولا أم موسى كانت كذلك.

والواقع أن الإتصال بالغيب وشهادة حقائق الملكوت وسماع ملائكة الغيب وبالنتيجة معرفة أخبار الغيب ليست من النبوة، فالنبوة هي «التنبؤ» وليس «كل من أخبر تنبأ».

والقرآن يذكر أن باب الإشراق والإلهام مفتوح أمام كل

---

(١) القصص: ٧.

من يطهر باطنه حيث يقول:

﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ (الأنفال: ٢٩) ويقول:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ العنكبوت ٨٩ ولا جل أن نعطي نموذجاً للحياة المعنوية والعرفانية في منطق الإسلام يكفي أن نذكر جانباً من إحدى خطب نهج البلاغة، إذ جاء في الخطبة (٢٢٠) منه:

(إن الله تعالى جعل الذكر جلاءاً للقلوب، تسمع به بعدالوقرة وتبصر به بعد العشوة تنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم). وروى عن النبي الأكرم:

(إن لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبوة)[1]

أما وجهة نظر الشيعة فإنهم وإن كانوا يعتقدون بأمامة

---

(١) ينقل صدر المتألهين هذا الحديث في مفاتيح الغيب ويقول: هذا الحديث مما رواه المعتبرون من أهل الحديث في طريقتنا وطريقة غيرنا (أي من الشيعة والسنة)، ويراجع أيضاً في ذلك الفصل الأخير من كتاب الشواهد الربوبية).

الأئمة الأطهار (ع) وولايتهم الباطنة فإنهم لا يعتبرونهم أنبياء والمسألة محلولة لديهم من هذا الجانب.

وقد قسم العارفون الإسلاميون المسيرة والسلوك المعنويين من حيث الإصطلاحات العرفانية إلى أربع مراحل وامتناعاً عن إطالة الحديث نشير إلى مرحلتين منها فقط:

١ ـ الرحيل من الخلق نحو الحق.

ب ـ الرحيل من الحق نحو الخلق.

والرحيل من الخلق نحو الحق لا يختص بالأنبياء فقط، بل أن الأنبياء بعثوا لكي يعينوا البشر على هذا الرحيل، والذي يختص به الأنبياء هو الرحيل من الحق نحو الخلق، أي أنهم أمروا بإرشاد الخلق وهدايتهم والأخذ بأيديهم، والنبوة هي الرجوع إلى الكثرة من أجل قيادتهم نحو الوحدة. يقول صدر المتألهين في صفحة (١٣) من مفاتيح الغيب:

«أعلم أن باب الهداية إذا انقطع وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسول وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وإكمال الدين كما قال الله تعالى، اليوم أكملت لكم

دينكم وأما باب الإلهام فلا يسدو مدد نور الهداية لا ينقطع». ويقول في مكان آخر من الكتاب نفسه:

«الوحي الخاص بالرسول والنبي من نزول الملك على إذنه وقلبه»[1].

وقد ذكرت أقوال كثيرة في هذا المجال يستوجب نقلها إطالة الحديث.

ومن علماء عصرنا هناك قول جميل لإقبال اللاهوري في هذا الموضوع إذ يقول في الفرق بين النبيّ والعارف (أو حسب تعبيره الرجل الباطني):

«إن الرجل الباطني لا يريد بعد الهدوء والإطمئنان اللذين يحصل عليهما بالتجربة الإتحادية ـ الوصول إلى الحق ـ الرجوع إلى الحياة في هذا العالم، وعند ذاك حيث يرجع بسبب الضرورة فإن رجوعه ليس ذا فائدة تذكر للبشرية، ولكن رجوع النبي ذو بعد خلاق ومثمر فهو يرجع ويدخل مجرى الزمان من أجل أن يضبط مجرى التاريخ ويخلق من هذا الطريق عالماً جديداً من الكمالات

(١) حين مراجعة المصدر المذكور لم نوفق لإيجاد ما يطابق تماماً ما ترجمة الشهيد مطهري إلى الفارسية لذا نقلنا هذه النصوص.

المطلوبة، والسكينة الناتجة من التجربة الإتحادية هي المرحلة النهائية لدى الرجل الباطني، أما النبي فإن استيقاظ قوى معرفة النفس لديه هي التي تحرك العالم، وتلك القوة محسوبة لدرجة تغير عالم البشرية تغييراً كاملاً. . . ويمكن تعريف النبوة كنوع من المعرفة الباطنية للنفس تميل التجربة الإتحادية فيها نحو اجتياز حدود نفسها وتبحث عن فرص توجه فيها طاقات الحياة الإجتماعية توجيهاً جديداً أو تعطيها شكلاً جديداً»[1].

فانقطاع النبوة يعني إذن انقطاع المهمة الإلهية للإرشاد والهداية وليس انقطاع الفيض المعنوي تجاه السائرين والسالكين إلى الله.

وإنه لخطأ كبير أن نظن أن الإسلام قد أنكر الحياة المعنوية بإعلانه ختم النبوة.

النبوة التبليغية:

السؤال الآخر هو: لما كان الأنبياء جميعاً يؤدون واجبين أحدهما أنهم كانوا يأتون من الله بقانون وبرنامج

(١) إحياء الفكر الديني في الإسلام ترجمة أحمد ارام ص١٢٣، ١٢٢.

عملي للبشرية والثاني أنهم كانوا يدعون الناس إلى الله وإلى تطبيق البرامج الإلهية لعصرهم وزمانهم ويبلغونهم إياها، وغالباً ما كانوا يؤدون الواجب الثاني وإن عدداً قليلاً جداً من الأنبياء يسميهم القرآن أولي العزم جاءوا بقانون وبرنامج عملي، وبعبارة أخرى كان هناك نوعان من النبوة: النبوة التشريعية والنبوة التبليغية، والأنبياء التشريعيون الذين كان عددهم قليلاً جداً كانوا أصحاب قوانين وشرائع في الوقت الذي كان الأنبياء التبليغيون يعلمون الناس ويبلغونهم ويرشدونهم إلى تعليمات الأنبياء أصحاب الشرائع، والإسلام إذا أعلن ختم النبوة لم يختم النبوة التشريعية فحسب بل ختم النبوة التبليغية أيضاً، فلما ذا يا ترى أصبح الأمر هكذا؟ لماذا بقيت أمة محمد وأمة الإسلام محرومة من توجيه أنبياء كهؤلاء وإرشادهم ولو قبلنا فرضاً أن الإسلام ختم النبوة التشريعية لكماله وتمامه وكليته وشموله، فبأية معادلة وبأية فلسفة يمكن تبرير انتهاء النبوة التبليغية؟

الحقيقة أن الواجب الأساس للنبوة والهداية والوحي هو الواجب الأول أما التبليغ والتعليم والدعوة فهي واجب نصفه بشري ونصفه الآخر إلهي.

فالوحي والنبوة تعني الإتصال الغامض بجذر الوجود ثم تسلم مهمة إرشاد الخلق وهي مظهر من مظاهره «الهداية» الحاكمة على جميع أنحاء الوجود.

﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ طه: ٥٠.

﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ الأعلى: ٢، ٣.

إن الموجودات بارتقائها سلم الوجود تستفيد من الهداية بدرجة تتناسب مع درجة الكمال التي تبلغها، أي أن خصوصية الهداية وشكلها يتفاوتان وفقاً لمراحل الوجود المختلفة، وقد أثبت العلماء أن الحيوانات كلما كانت أكثر ضعفاً وعجزاً من حيث التركيب والأدوات الطبيعية فهي أقوى من حيث توجيه القوة الغامضة للغريزة التي تمثل نوعاً من الحماية والإشراف المباشر للطبيعة، فكلما كانت مجهزة أكثر بالأدوات الطبيعية والقوى الحسية وقوى الخيال والتوهم والعقل وكلما ارتقت سلم الوجود، قلت هدايتها الغريزية، وشأنها في ذلك يشبه تماماً شأن طفل يخضع في مراحل طفولته الأولى لحماية الأبوين وإشرافهما المباشر والكامل

وكلما تقدم في النمو خرج من تحت حماية الوالدين المباشرة وأوكل أمره إلى نفسه.

إن صعود الأحياء سلم الوجود وتزودها بالأدوات العضوية وأعضاء الحس والخيال والوهم والذكاء والعقل يزيد في قدراتها واستقلالها ويقلل بالنسبة نفسها من هداياتها الغريزية.

يقولون إن الحشرات أكثر الحيوانات تزوداً بقوى الغريزة في الوقت الذي هي في الدرجة السفلى من حيث مراحل التكامل وإن الإنسان الذي بلغ أعلى درجات سلم التكامل أعجز الجميع من حيث الغريزة.

الوحي أعلى مظاهر الهداية وأرقى مراتبها وله دلالات تستعصي على الحس والخيال والعقل والعلم والفلسفة فلا شيء من هذه يحل محله، ولكن الوحي الذي يملك هذه الخاصية هو الوحي التشريعي وليس التبليغي، فالوحي التبليغي على عكس ذلك.

وحاجة البشر إلى الوحي التبليغي باقية إلى وقت لم يبلغ فيه العقل والعلم والتمدن درجة يستطيع فيها أن يتعهد بنفسه الدعوة والتعليم والتبليغ والإجتهاد في أمر دينه،

فظهور العلم والعقل وبعبارة أخرى نمو الإنسانية وبلوغها يختم بنفسه الوحي التبليغي فيحل العلماء محل هؤلاء الأنبياء (التبليغون).

ونحن نجد أن القرآن يتحدث في أول آية نزلت عن القراءة والكتابة والقلم والعلم:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ العلق: ١ ـ ٥.

وهذه الآيات تعلن أن عصر القرآن هو عصر القراءة والكتابة والتعليم والعلم والعقل، وهي تفهمنا بصورة تلميحية أن واجب التعليم والتبليغ وحفظ الآيات السماوية قد انتقل في عصر القرآن إلى العلماء فهم من هذه الناحية خلفاء الأنبياء، فهذه الآيات تمثل إعلاناً ببلوغ البشرية واستقلالها من هذه الناحية، والقرآن يدعو البشر ـ في جميع آياته ـ إلى التعقل والإستدلال ومشاهدة الطبيعية بشكل عيني وتجريبي ومطالعة التاريخ والتفقه والفهم العميق، وهذه جميعاً دلائل ختم النبوة وحلول العقل والعلم محل الوحي التبليغي.

ترى لأي من الكتب السماوية عُمِلَ بمقدار ما عُمِلَ للقرآن؟ فما أن نزل القرآن حتى برز آلاف من حفاظه، ولم يمض نصف قرن حتى دُوِّن لأجل القرآن علم النحو والصرف وجمعت مفردات اللغة العربية أو ابتكر علم المعاني والبيان والبديع، وظهرت آلاف التفاسير والمفسرين وحوزات التفسير، وأخذوا يدققون في كلمات القرآن ويتفحصونها واحدة بعد الأخرى، وغالباً ما كانت هذه الأعمال تصدر من أناس غرباء على اللغة العربية وكانت الرغبة والتعلق بالقرآن هي السبب الوحيد في إيجاد مثل هذا الهيجان والغليان فلماذا لم تصدر مثل هذه الأعمال تجاه التوراة والأنجيل والأوستا؟ أليس هذا بنفسه دليلاً على نمو البشرية وبلوغها وقابليتها على حفظ كتابها السماوي وتعليمه وتبليغه؟ أليس هذا في ذاته دليلاً على حلول المعرفة محل النبوة التبليغية؟

لقد كان البشر في المراحل السابقة كطفل في المدرسة يعطونه كتاباً ليقرأه فيمزقه بعد أيام، وإن البشر في المرحلة الإسلامية كعالم كبير السن يحفظ كتبه بدقة متناهية مع أنه يراجعها بشكل مكرر.

وعادة ما يقسمون حياة البشر إلى العصر التاريخي

وعصر ما قبل التاريخ. فالعصر التاريخي يبدأ منذ أن استطاع البشر أن يحفظوا ذكرياتهم على شكل كتب أو أشياء مكتوبة وهذه (الذكريات) هي التي يحكم بها اليوم حول الحياة في تلك الأيام، أما عصر ما قبل التاريخ فلم يبق منه أي أثر يكون مقياساً يحكم بموجبه.

ولكننا نعرف أيضاً أن آثار العصر التاريخي مبعثرة ومتفرقة فالمرحلة التي حفظ فيها البشر تاريخهم بشكل منظم جيلاً بعد جيل ونقلوها إلى الجيل الذي جاء بعدهم اقترنت بظهور الإسلام فضلاً عن أن الإسلام نفسه يعد عاملاً من عوامل هذا النمو العقلي، ففي مرحلة الإسلام حافظ المسلمون على آثارهم الخاصة ومنعوا اندراسها وفناءها وأيضاً حافظوا شيئاً ما على آثار الشعوب السابقة نقلوها للأجيال التي جاءت من بعدهم، أي أن البشر أبدوا لياقتهم في الحفاظ على ميراثهم العلمي والديني في عهد يقترن تقريباً مع عهد ختم النبوة، الواقع أن المرحلة التاريخية الحقيقية اقترنت بظهور الإسلام أما في المراحل السابقة فكانت الآثار العلمية والفلسفية والدينية النفيسة تظهر من جهة وتلتهمها المياه والنيران من جهة أخرى، والتاريخ يذكر الكثير من هذه الوقائع المؤلمة.

فالحوزة العلمية الهائلة في الإسكندرية حلت بعد نفوذ المسيحية في حوزة امبراطورية الروم الشرقية وابتلعت النيران مكتبتها التاريخية على أيدي المتعصبين المسيحيين(١).

إن طلوع العلم وظهوره وبلوغ البشر حدا يجعلهم قادرين وحدهم على حفظ دينهم السماوي والدعوة إليه وتبليغه قد ختمت النبوة التبليغية طوعاً أو كرهاً، ولهذا السبب يجعل النبي الأكرم علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل أو أفضل منهم.

وهنا أيضاً كلام جميل لإقبال اللاهوري يقول فيه:

---

(١) لقد أشيع لفترة طويلة أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبة حين فتحوا مصر وقد آشتدت هذه الشائعة إلى درجة جعلت المتأخرين المسلمين يذكرونها في كتبهم. وفضلاً عن أنه لم تثبت هذه المسألة في أي من الوثائق المعتبرة، فقد أثبت المحققون مؤخراً أن هذه المكتبة قد أحرقها المتعصبون المسيحيون من قبل وأن شائعة اتهام المسلمين بذلك صدرت من أحد المتحدثين المسيحيين كان يفصله قرنان عن ذلك الزمان، يراجع في ذلك الجزء الحادي عشر من ترجمة تاريخ الحضارة تأليف ويل دورانت ص ٢١٩ ورسالة شبلي النعماني الموسومة «مكتبة الإسكندرية» والتي كتبت في هذا الموضوع.

«لقد وقف نبي الإسلام بين العالم القديم والعالم الجديد فعندما يكون الحديث عن مصدر إلهامه فهو يتعلق بالعالم القديم وعندما يكون الأمر مختصاً بروح إلهامه فهو يخص العالم الجديد، فالحياة فيه تكتشف مصادر أخرى للمعرفة جديرة بخط مسيره الجديد، وظهور الإسلام ولادته تعتبر ولادة العقل البرهاني الإستقرائي، والرسالة بلغت حد الكمال بظهور الإسلام نتيجة اكتشاف ضرورة انتهائها، مما يستلزم في نفسه الإدراك الذكي لحقيقة تنص على أن الحياة لا يمكنها أن تستمر دائماً على شكل مرحلة الطفولة مقودة من الخارج، أما إلغاء الكهنوت والملكية الوراثية في الإسلام والتوجه الدائم نحو العقل والتجربة في القرآن والأهمية التي يوليها هذا الكتاب المبين للطبيعة والتاريخ باعتبارهما مصدري المعرفة البشرية، فهي جميعاً تمثل مظاهر مختلفة لفكرة ختم الرسالة... ولا ينبغي حمل فكرة الخاتمية على معنى أن مصير الحياة النهائي يتمثل في الإحلال الكامل للعقل محل العاطفة، فإن شيئاً كهذا ليس ممكناً ولا مطلوباً»(١).

(١) إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص ١٢٥.

الدين الخالد:

لقد أعلن الدين الإسلامي عن خلوده مع إعلان ختم النبوة:

(حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)[1].

وإن أكثر الأسئلة والإشكالات ضجيجاً تدور حول هذا الموضوع فهم يقولون: هل من الممكن أن يبقى شيء ما خالداً؟ فكل شيء في العالم ضد الخلود وإن أرسخ مبادىء هذا العالم هو مبدأ التغيير والتحول وشيء واحد فقط يبقى خالداً وهو أنه لا شيء يبقى خالداً.

ومنكرو الخلود يضفون أحياناً على أحاديثهم لوناً فلسفياً ويأتون بقانون التغيير والتحول الذي هو قانون الطبيعة العام كدليل على ما يقولون.

ولو نظرنا إلى المسألة من هذه الناحية فقط فجواب الإشكال واضح وهو: إن ما يتغير ويتحول دائماً هو المادة والتركيبات المادية للعالم أما القرانين والأنظمة ـ سواء

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ١٧.

الأنظمة الطبيعية أو الأنظمة الإجتماعية المستندة على النواميس الطبيعية ـ فلا يشملها هذا القانون، فالنجوم والمنظومات الشمسية تظهر وبعد فترة تفنى وتزول ولكن قانون الجاذبية لا يزال قائماً، وتولد النباتات والحيوانات وتحيا ولكن قوانين علم الأحياء لا تزال حية وباقية.

وهكذا هو حال الناس وقانون حياتهم فهم يموتون وكذلك شخص النبي ولكن قانونه السماوي يبقى حياً.
وعدت المصطفى الطاف الحق إن مت أنت لن تموت التعاليم.

وفي الطبيعة، فالظواهر هي التي تتغير وليس القانون، والإسلام قانون وليس ظاهرة وهو محكوم عليه بالموت لو لم يكن متناسقاً مع قوانين الطبيعة أما لو كان ـ كما يدعي هو ـ يستقي من الفطرة ومن طبيعة الإنسان والمجتمع ومتناسقاً مع الطبيعة وقوانينها فلماذا يموت إذن؟

ولكنهم أحياناً يوردون أشكالاً من الناحية الإجتماعية فيقولون: إن القوانين الإجتماعية هي عبارة عن مجموعة من القوانين المتفق عليها توضع على أساس الحاجات الإجتماعية تتغير بشكل يوازي توسع عوامل الحضارة

وتكاملها فحاجات كل عصر تتفاوت مع حاجات العصر الآخر حيث أن حاجات البشر في عصر الصاروخ والطائرة والكهرباء والتلفزيون قد اختلفت تماماً عن حاجات عصر الحصان والحمار والبعير، فكيف يمكن أن تكون قوانين حياة البشر في هذا العصر قوانين عصر الحصان والحمار والبعير نفسها؟ وبعبارة أخرى أن توسع عوامل الحضارة وتقدمها تأتي بشكل لازم وجبري بمقتضيات جديدة، فلا يمكن الوقوف بوجه «الجبر التاريخي» وإيقاف الزمن في حالة معينة ولا يمكن عدم التناسق مع مقتضيات الزمان وإن التقيد بمقررات ثابتة ذات وتيره واحدة يمنع الإنعطاف والتطابق مع مقتضيات الزمن ومواكبة قافلة الحضارة.

ولا شك أن أهم مسألة تواجه الأديان والإسلام بشكل خاص في هذا العصر هي هذه المسألة، فالجيل الجديد لا يفكر إلا بالتطور والتغيير والتجديد وتفهم مقتضيات الزمن، وحين نوجه هذا الجيل فإن أول كلام نسمعه هو هذا الكلام، والدين والتجديد ظاهرتان متناقضتان في نظر متطرفي هذا الجيل (فهم يقولون) إن صفة التجديد التحرك وترك الماضي وصفة الدين الجمود والسكون والإهتمام بالماضي، والمحافظة على الوضع كما هو:

ويجب على الإسلام أكثر من أي دين آخر أن يشمر عن ساعده مع هذه المجموعة لأنه من جهة يدعى الخلود الذي هو ثقيل على أسماع هؤلاء ومن جهة أخرى يتدخل في جميع شؤون الحياة ابتداءاً بعلاقة الفرد بالله ومروراً بالعلاقات الإجتماعية للأفراد والعلاقات الأسرية وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الإنسان بالكون، ولو أن الإسلام اقتنع بمجموعة من المراسم العبادية والتعليمات الأخلاقية الجافة ـ شأنه في ذلك شأن الأديان الأخرى ـ لما كانت هناك مشكلة تذكر، أما مع جميع هذه المقررات والقوانين المدنية والجزائية والسياسية والإجتماعية والعائلية فما ذا يمكن عمله يا ترى؟

كما نرى قد ورد الحديث في هذا الإشكال حول «الجبر التاريخي» و «تغير الحاجات» و «وجوب مراعاة مقتضيات الزمان»، ولهذا لزم أن نبحث قليلاً حول هذه المواضيع الثلاثة التي تشكل العنصر الأساس لهذا الإشكال، ثم نبين طريق الحل من وجهة نظر الإسلام.

ولا ندعي في قولنا هذا أنه يمكننا في هذه الصفحات المحدودة التعرض لجميع جوانب الموضوع بالتفصيل لأن

البحث في هذه المسألة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة والفقه والتاريخ وعلم الإجتماع يليق بكتاب كبير تنتجه سنوات من المطالعة، إن هذه المقالة تأمل أن تعطي ملامح عن حل هذه المشكلة.

الجبر التاريخي:

وهي كلمة مركبة من جزأين: الجبر والتاريخ.

فالجبر يعني الحتمية التي لا بد منها وفي اصطلاح الفلسفة الضرورة والوجوب، فعندما نقول مثلاً أن ٥ × ٥ تساوي ضرورة وجبراً (٢٥) فإننا نعني أن المسألة هكذا حتماً ولا يمكن خلاف ذلك، وبديهي أن الجبر في هذا الإصطلاح الذي هو مفهوم فلسفي ليس الجبر بالمفهوم الحقوقي والفقهي والعرفي الذي يعني الإكراه والإجبار بالقوة و ٥ × ٥ تساوي بحكم طبيعتها الذاتية (٢٥) وليس بحكم قوة جبرية قاهرة.

أما التاريخ: فهو يعني مجموعة الحوادث التي تشكل سيرة البشر، وسيرة البشر تطوي مسيراً وهناك قوى تديرها وتسيرها، فكما أن عجلة يدوية تدور بقوة اليد أو أن مصنعاً يدار بالبخار كذلك التاريخ يدور بعوامل وقوى وينعطف بها ويرقي.

فالجبر التاريخي إذاً يعني حتمية سيرة البشر وعدم إمكانية اجتنابها، ولو قلنا أن حركة التاريخ جبرية فهذا يعني أن العوامل المؤثرة في حياة البشر الإجتماعية ذات تأثيرات قطعية لا يمكن مخالفتها، وإن تأثير هذه العوامل ضروري وحتمي ولا بد منه.

وقد اكتسبت كلمة «الجبر التاريخي» في عصرنا قيمة واعتباراً كبيرين، فهذه الكلمة تلعب في الوقت الحاضر الدور نفسه الذي كانت تلعبه في الماضي كلمة «القضاء والقدر» فهي:

قناع نستر به استسلامنا للأحداث، وعذر نعتذر به في تقصيرنا.

فالسباع الضارية التي لا مفر منها إلا التسليم والرضا كانت في الماضي قضاءاً مقدراً وهي في وقتنا هذا جبر تاريخي.

والحقيقة أن كلاً من القضاء والقدر والجبر التاريخي ذو مفهوم فلسفي صحيح، وقد استوجب عدم إدراك مفهومها إدراكاً حقيقياً سوء التعبير، وإننا قد بحثنا في كتاب «الإنسان والمصير» حول القضاء والقدر أما الجبر التاريخي:

لا نقاش في أن سيرة حياة البشر شأنها شأن جميع حوادث العالم ذات قانون ثابت وإن العوامل التاريخية ذات تأثيرات قطعية وضرورية كجميع القوانين الأخرى، فالقرآن الكريم قد أيد ذلك بلغته الخاصة مسمياً إياها «سنة الله»، ولكن النقاش في شكل تأثير هذه العوامل وفي هل أن التأثير الجبري لعوامل التاريخ بشكل يجعل كل شيء مؤقتاً ومحدوداً ومحكوماً بالزوال أم بشكل آخر؟

من البديهي أن الأمر مرتبط بنوع العامل، فإن كانت العوامل التي تحرك التاريخ ثابتة ومستقرة، فسوف تكون نتيجة تأثيرها أن تستمر في تحريك تيار معين، وإن كانت على عكس ذلك غير مستقرة فسوف تكون نتائجها وآثارها غير مستقرة أيضاً، ومن العوامل التاريخية العامل العائلي والجنسي فهذا العامل عامل ثابت ومستقر وهو يميل دائماً نحو تشكيل العائلة واختيار الزوجة وإنجاب الأولاد، وعلى طول تاريخ البشرية حدثت حركات ضد الحياة العائلية ولكنها منيت جميعاً بالفشل، لماذا؟ لأنها كانت على خلاف الجبر التاريخي الذي كان يستوجب بقاء هذه الحياة، وعامل آخر من العوامل التاريخية هو العامل الديني حيث يوجد في طبيعة البشر ميل للعبادة ـ وبأي شكل وبأية صورة

كانت ـ وقد لعب هذا العامل دوره في جميع المراحل ولم يسمح بنسيان الإهتمام بالدين.

فمن الخطأ المحض أن نعتبر الجبر التاريخي مساوياً للتحديد والتوقيت ودليلاً على عدم ثبوت أي قانون وأية قاعدة.

فالجبر التاريخي ينتج عدم الثبوت حينما يكون العامل الذي نتحدث عنه كعامل الإنتاج الإقتصادي غير ثابت ويأخذ مكانه عامل آخر، إذاً يجب أن نبحث في الإنسان وحاجاته والعوامل المحركة للتاريخ ودائرة تأثير كل عامل في داخل المجتمع كي تتوضح لنا حدودها وأي منها ثابت ومستقر وأيها غير ثابت وغير مستقر؟

الحقيقة أن فرضية مساواة الجبر التاريخي لعدم ثبوت جميع شؤون حياة الإنسان وليد فرضية «أحادية بعد الإنسان» مطبقاً لهذه الفرضية لا يملك الإنسان أكثر من بعد أصيل واحد وأن تحول التاريخ هو تحول ذو جانب واحد، وفي وجهة نظر أنصار هذه الفرضية فإن العامل الأساس والأصلي للتاريخ في كل عصر هو الإقتصاد، فطريقة إنتاج الثروة وتوزيعها وعلاقات الأفراد الإقتصادية كعلاقات العامل ورب

العمل والفلاح وصاحب الأرض وغيرها التي هي بالتأكيد علاقات متغيرة وغير ثابتة هي التي تعين جوانب الحياة الأخرى كالدين والعلم والفلسفة والقانون والأخلاق والفن، وقد أثارت هذه الفرضية في البداية ضجة كبيرة في العالم ولكنها الآن فقدت قيمتها واعتبارها السابق وحتى أن الكثير من المحللين الماديين للعالم والتاريخ قد أداروا ظهورهم الآن لهذه الفرضية.

ومع أنه لا يمكن لنا لحد الآن - من الناحية العلمية - إبداء وجهة نظرنا حول عدد إبعاد الإنسان «هذا الكائن المجهول» وبكم بعد يمكن افتراض تاريخ الإنسان ولكنه من المسلم به أن الإنسان ليس ذا بعد واحد وإن فرضية أحادية بعد الإنسان وأحادية خط مسير تاريخه من أكثر الفرضيات افتقاداً للأساس.

الحاجات:

هل صحيح أن جميع حاجات البشر متغيرة وبتغيرها تتغير القوانين والمقررات المتعلقة بها؟

الجواب أنه لا جميع الحاجات متغيرة ولا أن تغييرها مشروط بتغير مباديء الحياة وقواعد الأساس.

أما شرح الجزء الأول (من العبارة السابقة) فهو: أن الحاجات على نوعين، حاجات أولية وحاجات ثانوية، فالحاجات الأولية تنبع من عمق بناء البشر الجسمي والنفسي ومن طبيعة الحياة الإجتماعية، فما دام الإنسان إنساناً وما دامت حياته حياة اجتماعية فتلك الحاجات موجودة، وهذه الحاجات إما جسمية أو نفسية أو اجتماعية، فالحاجات الجسمية هي من قبيل الحاجة إلى الغذاء والملبس والمسكن والزوجة وغير ذلك والحاجات النفسية هي من قبيل العلم والجمال والحسن والعبادة والإحترام والتربية أما الحاجات الإجتماعية فهي من قبيل: المعاشرة والمبادلة والتعاون والعدالة والحرية والمساواة.

والحاجات الثانوية هي حاجات تنشأ من الحاجات الأولية، فالحاجة إلى آلات المعيشة وأدواتها التي تختلف من عصر لعصر ومن زمان لآخر، هي من هذا النوع.

الحاجات الأولية تحرك البشر نحو التوسع والكمال في الحياة أما الحاجات الثانوية فهي تنشأ عن توسع الحياة وكمالها وهي في الوقت نفسه تحرك نحو التوسع الأكثر والكمال الأعلى.

وتغيير الحاجات وتجددها وتعتقها تحدث جميعاً في الحاجات الثانوية فالحاجات الأولية لا تبلى ولا تفنى وهي دائماً حية وجديدة، وإن بعضاً من الحاجات الثانوية بهذه الصورة أيضاً ومن هذه الحاجات الحاجة إلى القانون، فالحاجة إلى القانون تنشأ عن الحاجة إلى الحياة الإجتماعية وهي في الوقت نفسه دائمة وباقية، ولن يستغني البشر عن القانون في أي زمان كان.

وأما شرح الجزء الثاني فهو: صحيح أن توسع عوامل الحضارة يولد حاجات جديدة وأحياناً يستوجب مجموعة من الإتفاقات والقوانين الفرعية فمثلاً وسائل النقل الآلية تستوجب وضع مجموعة من الإتفاقات والقوانين الفرعية فمثلاً وسائل النقل الآلية تستوجب وضع مجموعة من المقررات الدولية بين الدول والتي لم تكن هنالك حاجة إليها في الماضي، ولكن توسع عوامل الحضارة لا يستوجبه تبديل القوانين الحقوقية والجزائية والمدنية التي تتعلق بالبيع والشراء والوكالة والغصب والضمان والإرث والزواج وأمثال ذلك إذا كانت تستند إلى العدالة والحقوق الفطرية الحقيقية، فضلاً عن القوانين المتعلقة بعلاقة الإنسان بالله أو علاقته بالطبيعة.

القانون يشخص الطريق العادل والشريف لتأمين الحاجات. فالتغيير والتبديل في الوسائل والأدوات التي نحتاج إليها لا يتسبب في تبديل طريقة الحصول عليها والإستعادة منها وتبادلها بشكل عادل إلا إذا افترضنا أنه كما تتغير أسباب الحياة ووسائلها وأدواتها وتتكامل فإن مفاهيم الحق والعدل والأخلاق تتغير أيضاً وبعبارة أخرى نفترض أن الحق والعدل والأخلاق مجموعة من المفاهيم النسبية، فالذي هو حق أو عدل أو أخلاق في زمان معين هو في زمان آخر مضاد للحق أو العدل أو الأخلاق.

وهذه الفرضية تطرح كثيراً في عصرنا، ولكنه لا مجال في هذه المقالة لطرح هذه المسألة وبحثها ونكتفي بالقول أن عدم تفهم المفهوم الحقيقي للحق والعدل والأخلاق كان وحده سبباً في طرح هذه الفرضية، فما يتغير من الحق والعدل والأخلاق هو شكلها التنفيذي ومظهرها العمليّ وليس حقيقتها وماهيتها.

إن دستوراً معيناً لو كان له أساس حقوقي وفطري، ويتمتع بديناميكية حية، ويرسم خطوط الحياة الأصلية ويهتم بشكل الحياة وصورتها التي ترتبط بدرجة الحضارة، فبإمكانه

مواكبة تغيرات الحياة بل أن يكون موجها لها.

إن التناقض بين القانون والحاجات المتجددة ينشأ حينما يهتم القانون بتثبيت شكل الحياة وظاهرها بدل أن يعين خط المسير كأن يريد التثبيت الدائم للوسائل والأدوات الخاصة المرتبطة ارتباطاً تاماً بمستوى الثقافة والحضارة.

لو قال القانون أنه يجب إلزاماً الإستعمال الدائم لليد في الكتابة والحصان والحمار في الركوب، والمصباح الزيتيّ في الإضاءة، والمنسوجات اليدوية في الملبس و.... فإن قانوناً كهذا قد وجد للصراع مع تقدم العلم والحضارة والحاجات الناشئة عن ذلك، وبديهي أن الجبر التاريخي سوف يبدل هذا القانون.

فكلما كان القانون جزئياً ومادياً بمعنى أن يقيد نفسه بمواد وألوان وأشكال خاصة، كان أقل حظاً في البقاء والإستمرار، وكلما كان كلياً ومعنوياً ولم يهتم بالأشكال الظاهرية للأشياء بل بالعلاقات بين الأشياء أو الأشخاص كان أكثر حظاً في البقاء والإستمرار.

مقتضيات الزمان:

المقصود بمقتضيات الزمان ما تقتضيه البيئة والمجتمع

والمعيشة، فالإنسان وبحكم تزوده بقوى العقل والإبتكار والإختيار ولأنه يرغب في أن يعايش حياة أفضل، يدخل إلى حياته بشكل مستمر أفكاراً وعوامل ووسائل أفضل لرفع احتياجاته الإقتصادية والإجتماعية والمعنوية، وأن دخول العوامل والوسائل الأكمل والأفضل يسبب في أن تترك العوامل القديمة والناقصة مكانها لهذه ويصبح الإنسان تابعاً للعوامل الجديدة والحاجات الخاصة بها، وتبعية البشر لمجموعة من الحاجات المادية والمعنوية والتغيير الدائم للوسائل والعوامل التي تلبي هذه الحاجات واكتمالها وتحسنها الدائمين اللذين يؤديان بدورها إلى بروز مجموعة من الحاجات الجديدة، هذه الأشياء جميعاً تكون سبباً في تغير مقتضيات البيئة والمجتمع والحياة في كل عصر وزمان وأن يطابق الإنسان بين نفسه وبين المقتضيات الجديدة، ومع هذه المقتضيات لا ينبغي الصراع ولا يمكن ذلك.

ولكن جميع الظواهر الجديدة التي تبرز مع الزمن ليست ـ مع الأسف من نوع الأفكار الأفضل والعوامل والوسائل الأكمل لحياة أكثر سعادة، فالزمان والبيئة والمجتمع من صنع البشر الذي لم يكن أبداً معصوماً عن الخطأ، وعليه فإنه ليس واجب الإنسان الوحيد الإنطباق مع

الزمن وأفكاره وعاداته ومرغوباته وأتباعها بل أن من واجبه أيضاً مراقبة الزمن وإصلاحه، ولو كان ينبغي على الإنسان أن يطابق نفسه مع الزمن فمع ماذا ينبغي له مطابقة الزمن؟

و «مقتضيات الزمان» من وجهة نظر ذوي التفكير الواطىء تعني الأمزجة والمتطلبات الرائجة للعصر، فعبارة «عالمنا اليوم لا يوافق ذلك» أكثر تأثيراً في تحطيم شخصية هؤلاء واستسلامهم غير المشروط من أي منطق نظري أو عملي أو صوري أو مادي أو قياسي أو تجريبي أو استقرائي، ويكفي في نظر هؤلاء أن يصدر شيء من المزاج اليومي ـ خاصة في العالم الغربي ـ لكي نحكم أن «مقتضيات الزمن» قد تغيرت فهو (في نظرهم) «جبر تاريخي» و «شيء لا بد منه» و «شرط للرقي والتقدم» في الوقت الذي نعرف أن الإنسان هو الذي يصنع الزمان والبيئة والعوامل الإجتماعية وهو الذي لم يأت من العالم القدسي فالإنسان ـ مهما كان غريباً ـ قابل للخطأ.

فكما أن الإنسان يملك العقل والعلم فهو يملك الشهوة وهوى النفس وكما يخطو نحو مصلحته ونحو الحياة الأفضل فهو ينحرف أحياناً أيضاً، وعليه فإن الزمان أيضاً

قابل للتقدم وقابل للإنحراف، فمع تقدم الزمان يجب التقدم ومع انحرافه يجب الصراع.

«مقتضيات الزمان» هي كالحرية من الكلمات التي كان لها مصير أسود ـ خاصة في بلاد الشرق ـ وهي الآن أصبحت تماماً بشكل أداة استعمارية لأجل ضرب الثقافة الشرقية الأصيلة وفرض الروح الغربية وكم من السفسطات تحدث تحت هذا الإسم؟ وكم من التعاسات فرضت مع هذه اللافتة الجميلة.

يقولون إنه عصر العلم، ونقول لهم صحيح ولكن هل جفت جميع المنابع في وجود البشر إلا منبع العلم؟ وكلما يظهر هو الوليد المشروع للعلم وحده؟ في أي عصر كان للعلم والمعرفة هذه القوة والقدرة والإتساع الذي نجده في عصرنا، وفي أي عصر فقد (العلم) حريته وقهره شبح الشهوة وثعبان حب الذات وحب الجاه وعبادة المال والإستخدام والإستغلال كما حدث له في هذا العصر؟

الذين يدعون أن مقتضيات الزمان المتغيرة تستوجب عدم خلود أي قانون يجب عليهم أولاً أن يفصلوا بين الموضوعين السابقين كي يكون معلوماً أن لا وجود في

الإسلام لأي شيء يخالف التقدم نحو حياة أفضل.

مشكلة عصرنا أن البشر أقل نجاحاً في الفصل بين هذين الموضوعين فهم إما يصابون بالجمود فيتحالفون مع ما هو قديم ويصطرعون مع كل ما هو جديد، أو يصابون بالجهل فيبررون كل ظاهرة حديثة الظهور تحت إسم مقتضيات الزمان.

التحرك والانعطاف:

إن طرح مسائل من قبيل: الجبر التاريخي وتغير الحاجات ومقتضيات الزمان يكون مفيداً بالقدر الذي يجعلنا ندرك أنه لا يمكن اتخاذ هذه الأمور مبررات للتنديد الأعمى بأي قانون وإنكار خلوده.

ولكنه من البديهي أن طرح هذه المسائل لا يكفي وحده لحل مشكلة الخلود إذ من المسلم به أنه لو أراد قانون خالد الإحاطة بجميع صور الحياة المتغيرة وأن يعطي حل جميع المشاكل وأن يحل كل مشكلة بشكل خاص فيجب أن يتمتع بنوع من الديناميكية والتحرك ونوع من الإنعطاف ولا يكون جافاً وجامداً وغير قابل للإنعطاف، ولنرى الآن كيف أن الإسلام أعطى الحلول المختلفة لصور

الحياة المختلفة مع محافظته على مبدأ.

(حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة).

من المسلم به أنه لا بد هناك من سر ورمز كامنين في نظام التشريع الإسلامي لكي يكون قادراً على التفوق على هذه المشكلة الكبرى.

إن مولد جميع الأسرار والرموز ومصدرها روح الإسلام المنطقية وتبعيتها الكاملة لفطرة الإنسان والمجتمع والكون وطبيعة كل منها.

والإسلام قد أعلن رسمياً في وضعه لقوانينه ومقرراته احترامه للفطرة واتباعه للقوانين الفطرية، وهذه الناحية هي التي أعطت لقوانين الإسلام إمكانية الخلود.

ويمكن معرفة إستناد الإسلام واتباعه الفطرة من الصفات التالية:

١ ـ قبول العقل وإدخاله مجال الدين، فلم يكن لأي دين علاقة قوية بالعقل ولم يعطه هذا الحق كما فعل الإسلام، فأي دين يمكن أن نجده قد جعل العقل واحداً

من مصادر أحكامه، وفقهاء الإسلام اعتبروا مصادر الأحكام ومستنداتها أربعة أشياء: الكتاب والسنة والإجماع والعقل، وهم يرون بوجود علاقة لا تنفصل بين العقل والشرع ويسمونها قاعدة الملازمة فهم يقولون:

(كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل).

العقل في الفقه الإسلامي يمكنه أن يكون مكتشفاً للقانون وأن يقيد قانوناً ويحدده أو يعممه ويمكنه أيضاً أن يكون عاملاً مساعداً جيداً في الإستنباط من سائر المصادر والوثائق.

وقد برز حق العقل في التدخل من كون المقررات الإسلامية تهتم بواقع الحياة، فالإسلام لم يجعل لتعليماته رموزاً سماوية مجهولة وغير قابلة للحل.

٢ ـ الشمول، وتعبير القرآن «الوسطية»، فأحادية بعد قانون ما أو مدرسة معينة تحمل معها سبب نسخ هذا القانون أو المدرسة، فالعوامل المؤثرة والمتحكمة في حياة الإنسان كثيرة وغض النظر عن أي منها ينتج بنفسه عدم التوازن، وأهم ركن من أركان الخلود الإهتمام بجميع

الجوانب المادية والروحية والفردية والإجتماعية، فشمول التعليمات الإسلامية وتعدد أبعادها يعترف به الذين يعرفون الإسلام، وبحث هذا الموضوع تفصيلاً خارج عن مسؤولية هذه المقالة.

٣ ـ لم يتوجه الإسلام أبداً إلى شكل الحياة وصورتها وظاهرها فالتعليمات الإسلامية تتوجه جميعاً نحو الروح والمعنى وهي طريق يوصل البشر إلى تلك الأهداف والمعاني، والإسلام قد جعل تحت نفوذه الأهداف والمعاني وإعطاء طريقة الوصول إلى تلك الأهداف والمعاني ترك البشر أحراراً في غير ذلك وبهذا منع أي تصادم مع تقدم الحضارة والثقافة.

ولا يمكن في الإسلام العثور على أية وسيلة مادية وشكل ظاهري يتخذ طابع القدسية بشكل يجعل المسلم يشعر أن من واجبه الحفاظ على ذلك الشكل والمظهر، ولهذا فإن الإمتناع من التصادم مع مظاهر التقدم العلمي والحضاري من الأمور التي سهلت عملية انطباق هذا الدين مع مقتضيات الزمان وترفع أكبر مانع للخلود.

٤ ـ الرمز الآخر لخاتمية هذا الدين وخلوده والذي هو

أيضاً يستقي من التنسيق مع القوانين الفطرية، هو أنه وضع قوانين ثابتة وغير قابلة للتغيير من أجل تلبية الإحتياجات الثابتة والدائمة للبشر وتوقع لأوضاعهم وأحوالهم المتغيرة وضعاً متغيراً.

لقد قلنا سابقاً أن جزءاً من حاجات البشر ـ سواءاً في الأمور الفردية أو الإجتماعية ـ ذو وضع ثابت وهي متساوية في جميع الأزمنة فالنظام الذي يجب على الإنسان أن يضعه لغرائزه يسمى «الأخلاق» والنظام الذي يجب أن يضعه لمجتمعه يدعي «العدالة» والعلاقة التي يجب أن تربطه بخالقه وتجدد إيمانه وتكمله وتسمى «العبادة» هي جميعاً من هذا القبيل.

وجزء آخر من حاجات البشر متغير ويوجب من الناحية القانونية وضعاً متغيراً، والإسلام قد خصص لهذه الحاجات المتغيرة وضعاً متغيراً حيث ربط هذه الأوضاع المتغيرة بالمبادىء الثابتة وغير القابلة للتغيير والتي تنتج في كل وضع جديد ومتغير قانوناً فرعياً ومناسباً خاصاً لذلك الوضع.

ونكتفي هنا بذكر مثالين لما نقول: في الإسلام مبدأ

اجتماعي بهذا الشكل:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الأنفال: ٦٥.

أي أعدوا القوة وكونوا أقوياء أمام العدو حتى آخر حد ممكن، وهذا المبدأ يعلمنا إياه «الكتاب» أي القرآن ومن جهة أخرى وردت في السنة مجموعة من التعاليم تعرف في الفقه باسم «السبق والرماية» فقد وردت تعليمات تقول:

علموا أنفسكم وأبنائكم فن ركوب الخيل والرماية إلى حد المهارة الكاملة، وقد كان سباق الخيل والرماية من الفنون العسكرية لذلك العصر من أفضل الوسائل لأعداد القوة والشدة أمام العدو، ولكن جذور قانون «السبق والرماية» وأساسه هو مبدأ «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» بمعنى أن الأصالة في الإسلام ليست للسهام والسيوف والرماح والخيول التي هي أيضاً ليست من الأهداف الإسلامية بل الأصالة في أنه يجب على المسلمين في كل عصر وزمان أن يكونوا أمام أعدائهم أقوياء من حيث القوة العسكرية والدفاعية إلى آخر حد ممكن.

والواقع أن وجوب المهارة في الرماية وسباق الخيل بمثابة ثوب ألبس به وجوب الشدة أمام العدو، وبعبارة

أخرى كانت المهارة في الرماية الشكل التنفيذي للقوة في ذلك العصر والزمان، فوجوب الشجاعة أمام العدو قانون ثابت ينبع من حاجة ثابتة ودائمة، أما وجوب المهارة في الرماية وسباق الخيل فهو مظهر حاجة مؤقتة ويتغير بتغير مقتضيات الزمان وتوسع العوامل الثقافية والفنية فتحل محله أمور أخرى من قبيل وجوب المهارة في استعمال أسلحة هذا اليوم.

المثال الآخر: قال النبي الأكرم (ص) طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وقد أثبت العلماء المسلمون أن وجوب تحصيل العلم في نظر الإسلام في أمرين: أحدهما حين يكون اكتساب الإيمان تابعاً للعلم والآخر حين تكون تأدية واجب معين متوقفة عليه.

وفي الحالة الثانية يقولون إن وجوب طلب العلم هو نوع من التهيؤ أي من أجل أن يعد الإنسان للعمل وتأدية الواجب.

ومن هنا أصبح تحصيل العلوم من حيث الوجوب وعدم الوجوب متفاوتاً حسب مقتضيات الزمان، ففي بعض الأزمنة

ليس لتأدية التكاليف الإسلامية وحتى التكاليف الإجتماعية كالتجارة والصناعة والسياسة وغيرها حاجة تذكر إلى تحصيل العلم فالتجارب العادية كافية لهذا الغرض، ولكن في أزمنة أخرى كزماننا فإن تأدية هذه الواجبات معقدة وصعبة إلى درجة تستوجب فيها سنين من الدراسة والتخصص حتى يمكن تأدية التكاليف الإجتماعية الإسلامية (الواجبات الكفائية)، ولهذا فإن تحصيل العلوم السياسية والإقتصادية والفنية وغيرها الذي لم يكن واجباً في عصر ما يصبح واجباً في عصر آخر، لماذا؟ لأن تنفيذ مبدأ وجوب حفظ كرامة المجتمع الإسلامي وعزته واستقلاله والذي هو مبدأ ثابت ودائم لا يحصل في ظروف هذا الزمان إلا بتحصيل العلم وإكماله، فإنجاز هذا التكليف في الظروف والأزمنة المختلفة لا يتم بصورة واحدة.

ويمكن أن نجد الكثير من هذا النوع من الأمثلة.

٥ ـ من الأمور الأخرى التي تدل على تناسق التعليمات الإسلامية مع الطبيعة والفطرة وتعطيها إمكانية الخلود العلاقة السببية بين الأحكام الإسلامية وبين المصالح والمفاسد الحقيقية وتصنيف الأحكام حسب هذه الصفة.

قد أعلن في الإسلام أن الأحكام تتبع مجموعة من المصالح والمفاسد الحقيقية وأعلن أن هذه المصالح والمفاسد ليست بدرجة واحدة.

وهذا الأمر أدى إلى فتح باب خاص في الفقه الإسلامي باسم باب «التزاحم» أو «الأهم والمهم» ليسهل عمل الفقهاء والخبراء المسلمين في المواضع المتضاربة واجتماع المصالح والمفاسد المختلفة، وقد أجاز الإسلام نفسه لعلماء الأمة في هذه المواضع أن يقيسوا درجة أهمية المصالح مسترشدين بتوجيهات الإسلام الخاصة ويرجحوا المصالح الأهم على المصالح الأقل أهمية فيخرجوا من الطريق المسدود.

روي عن الرسول الأكرم (ص): (إذا اجتمعت حرمتان طرحت الصغرى للكبرى) ينقل ابن الأثير في «النهاية» هذا الحديث ويقول: أي إذا كان أمر فيه منفعة للناس ومضرة على الخاصة قدمت منفعة العامة. وما قاله ابن الأثير هو أحد موارد تقدم المصلحة الأهم على المصلحة الأصغر فنص الحديث لا ينحصر بهذا المورد.

يعتبر تشريح الميت الذي أصبح في عصرنا ضرورياً

بتقدم العلم واحداً من مصاديق باب «التزاحم»، فكما نعرف قد أوجب الإسلام احترام جسد المسلم والإسراع في مراسم تجهيز الميت، ومن جهة أخرى يتوقف جزء من التحقيقيات والتعليمات الطبية في عصرنا على التشريح، وهنا مصلحتان، وقفتا متخالفتين، ومن البديهي أن مصلحة التحقيقات والتعليمات الطبية مرجحة على مصلحة الإسراع في تجهيز الميت واحترام جنازته ففي حالة انحصار الأمر بالميت المسلم وعدم كفاية غير المسلم، أو تقدم الميت المجهول على المعلوم ومراعاة بعض الخصوصيات الأخرى يرفع منع تشريح جثة الميت المسلم بحكم قاعدة «الأهم والمهم».

ولهذه القاعدة أيضاً أمثلة كثيرة.

٦ - الشيء الآخر الذي منح المقررات الإسلامية صفة الإنعطاف والتحرك والتطابق ويحفظها خالدة وجود مجموعة من القواعد الضابطة التي تكمن في نص المقررات الإسلامية والتي أسماها الفقهاء إسماً جميلاً جداً حيث يسمونها القواعد «الحاكمة» يعني القواعد التي تتحكم بجميع الأحكام والمقررات الإسلامية وتتسلط عليها، وهذه

القواعد تراقب الأحكام والمقررات كمجموعة من المفتشين وتضبطها، فقاعدة «الحرج» وقاعدة «لا ضرر» من هذا النوع، وفي الحقيقة أعطى الإسلام لهذه القواعد حق «الفيتو» ولهذه القواعد أيضاً قصة مفصلة ورائعة.

٧ ـ شيء آخر هو الصلاحيات التي منحها الإسلام للحكومة الإسلامية وبعبارة أخرى للمجتمع الإسلامي، وهذه الصلاحيات تختص بالدرجة الأولىٰ بحكومة شخص النبي وتنتقل منه لحكومة الإمام ومنه لأية حكومة شرعية أخرى، يقول القرآن الكريم:

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾

ومجال هذه الصلاحيات واسع، فالحكومة الإسلامية تستطيع في الظروف الجديدة والحاجات الجديدة وبالإستناد إلى المبادىء والأسس الإسلامية أن تضع مجموعة من المقررات التي كانت في الماضي منتفية موضوعياً[1]، وصلاحيات السلطة الإسلامية الحاكمة تعتبر شرطاً لازماً

---

(١) راجع «تنبيه الأمة» للمرحوم آية الله النائيني ص ٩٧ ـ ١٠٢ ومقالة «الولاية والزعامة» بقلم العلامة الطباطبائي في كتاب «المرجعية والعلماء» ط ٢ ص ٨٢ ـ ٨٤.

الأكرم بشكل خاص على الإستفادة من القرآن للحكم على صحة ما ينقل عن لسانه وسقمه.

وحفظ النصوص الأصلية من تلاعب الأحداث، واستنباط الفروع من الأصول وتطبيق الكليات على الجزئيات، وطرح المسائل الجديدة التي يأتي بها كل عصر واكتشافها والوقوف بوجه التطرف، ومقاومة الجمود على الأشكال والظواهر والعادات وفصل الأحكام الأصلية والثابتة والأم عن المقررات الفرعية والناتجة، وتشخيص الأهم والمهم ثم ترجيح الأهم، وتعيين حدود صلاحيات الحكومة ووضع القوانين المؤقتة، وفي النهاية تنظيم البرامج المناسبة لحاجات العصر، من أهم واجبات علماء الأمة في مرحلة الخاتمية.

فعلماء الأمة الإسلامية وطبقاً للواجب والمسؤولية التي يتحملونها سوف يكونون أعلم الناس بزمانهم، لأن تشخيص مقتضيات الزمان الحقيقية من مقتضيات الإنحرافات الأخلاقية والإنحطاطات الروحية للناس، لا يمكن تحقيقه دون معرفة روح العصر والعوامل المأثرة في تركيبه ووجهة سير تلك العوامل.

الاجتهاد:

الاجتهـاد هو أهم واجبات علماء الأمـة ومسؤوليـاتهم، فـالاجتهـاد يعني السعي بعلم وبـطريقـة صحيحـة لإدراك مقـررات الإسلام بـالإستفادة من المصـادر: الكتاب والسنـة والإجماع والعقل.

وقد وردت الإجتهاد لأول مرة في الأحاديث النبوية وبعد ذلك شـاعت بين المسلمين، ولم ترد هـذه الكلمة في القرآن، والكلمة التي تـرادف في روح المعنى هذه الكلمـة ووردت في القـرآن هي كلمة «التـفقـه»، فالقـرآن قـد دعـا بصراحة إلى التفقه والفهم العميق للدين.

وعلى الإجتهـاد أو التفقـه في مـرحلة الخـاتميـة واجب حساس جداً وأساس وهو من شـروط بقاء الإسـلام خالـداً، وقـد أسمـوه بحق الـطاقـة المحـركـة لـلإسـلام وابن سينـا الفيلسوف الإسلامي الكبير يطرح هذه المسألة بنظرة واضحة فيقول:

الكليات الإسلامية ثابتة ومحدودة ولا تتغير أما الحوادث والمسائل فهي متغيرة وغير محـدودة، ولكل زمـان مقتضياتـه ومسائلة الخاصـة، ولهذا فمن الضـروري أن يتعهد في كـل

عصر وزمان نفر من المتخصصين والعارفين بكليات الإسلام ومسائل الزمان وحوادثه، بالإجتهاد واستنباط أحكام المسائل الجديدة من كليات الإسلام»[1] في المراحل المضيئة للحضارة الإسلامية التي توسع فيها المجتمع البدوي البسيط بسرعة فسيطر على آسيا وأجزاء من أوروبا وأفريقيا وحكم الشعوب والأقوام المختلفة التي كان لكل منها ماضي وثقافة خاصة به مما أوجد آلاف المسائل الجديدة، تحمل علماء الإسلام الواجب الذي أوكل إليهم جيداً وأثاروا إعجاب العالم وأثبتوا أن المصادر الإسلامية لو اقترنت بحسن التشخيص والإستنباط فهي قادرة على التقدم مع مجتمع متحول ومتكامل وتوجيهه، وأثبتوا أن الحقوق الإسلامية حية وقابلة للتنسيق مع المقتضيات الناشئة عن تقدم الزمان والإستجابة لحاجات كل عصر.

ويعترف المستشرقون والحقوقيون الذين طالعوا تاريخ الفقه الإسلامي لذلك العصر بهذه الحقيقة ويرون أن الحقوق الإسلامية مدرسة حقوقية مستقلة وحية.

كان حق الإجتهاد محفوظاً وبابه مفتوحاً حتى القرن

---

(١) آخر إلهيات الشفاء.

السابع الهجري، وفي هذا القرن سلبوا هذا الحق من العلماء ولأسباب تاريخية خاصة وبشوري وإجماع مصطنعين وأجبر العلماء أن يتبعوا إلى الأبد آراء علماء القرن الثاني والثالث الهجري ومن هنا برزت مسألة حصر المذاهب الفقهية بالمذاهب الأربعة المعروفة.

ويعتبر غلق باب الإجتهاد مصيبة كبرى في العالم الإسلامي وربما كان إلى حد ما رد فعل لمجموعة من الإجتهادات المتطرفة، على كل حال أن أنواع الجمود والركود في الفقه الإسلامي بدأت منذ ذلك الوقت.

وقد حدث غلق باب الإجتهاد عند أهل السنة ولم تكن له علاقة مباشرة بالعالم الشيعي، ولكنه ترك طوعاً أو كرهاً تأثيراً غير مطلوب في العالم الشيعي، فقد برزت بعد القرن السابع في فقه الشيعة أفكار ورؤى عميقة وفي بعض الأجزاء حدثت تحولات عظيمة ولكنه لا يمكن في الوقت نفسه إنكار أن في هذه النظام الفقهي أيضاً نرى بشكل واضح ميلاً إلى طرح المسائل بطريقة ما قبل سبعة قرون والهروب من المواجهة مع المسائل التي تحتاج إليها اليوم وعدم الميل إلى كشف الطرق الأحدث والأعمق.

ظهرت في القرون الأخيرة ـ مع كل أسف ـ بين الشباب وما تسمى بالطبقة المثقفة المسلمة ميول نحو التغرب ونبذ الأصالة الشرقية والإسلامية والإستسلام والتقليد الأعمى لكل «أزم»[1] غربية ولسوء الحظ أن هذه الميول تسير نحو الإزدياد، ولكن لحسن الحظ هناك إحساس بظهور طلائع نهضة ووعي أمام هذه الميول العمياء الغارقة في النوم.

ويكمن جذر هذه الضلالة النائمة في التصور الخاطىء الذي تحمله هذه المجموعة في أذهانها حول المقررات الإسلامية من ناحية ما يسمى بـ «الدغماتية» وقد ساعد عدم تحرك الإجتهاد على مر القرون على هذه التصورات الخاطئة، وإنه لمن واجب مسؤولي القوم وهداتهم الوقوف في أسرع ما يكون وبشكل منطقي أمام هذه الميول غير الصائبة.

ولا تخفى أسباب هذه الحالة وعواملها على أحد، ومما لا ينبغي كتمانه أن الجمود والركود الفكريين اللذين حكما العالم الإسلامي خلال القرون الأخيرة وخاصة توقف الفقه الإسلامي عن التحرك، وظهور روح الميل والنظر إلى الماضي، والإمتناع عن مواجهة روح العصر، تعد من

أسباب هذه الهزيمة، واليوم فالعالم الإسلامي بحاجة ـ أكثر من أي وقت ـ إلى نهضة تشريعية تنبع بنظرة جديدة وواسعة وشامله من أعماق التعليمات الإسلامية لأجل أن نفك حبال الإستعمار الفكري الغربي عن أيدي المسلمين وأرجلهم.

١ ـ لاحقة تلحق بالكلمات الأجنبية مثل (أمبرياليزم).

الرؤى الجديدة:

من أعجب الموضوعات في تاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية، الإستعداد اللامنتهي للمصادر الإسلامية وخاصة القرآن الكريم للتحقيق والإكتشاف والإستنباط، ولا يختص هذا الأمر بالمسائل الفقهية والحقوقية فهو هكذا في جميع الأجزاء، فكل كتاب بشرى ومهما كان عظيماً له استعداد محدود وقابل للإنتهاء في التحقيق والمطالعة ويكفي عمل عدة أشخاص متخصصين لتوضيح جميع جوانبه، ولكن القرآن أظهر خلال أربعة عشر قرناً ومع العمل المستمر عليه من قبل مئات المتخصصين أن له من حيث التحقيق والإجتهاد استعداداً غير قابل للإنتهاء والقرآن من هذه الناحية كالطبيعة التي كلما توسعت الرؤى وتعمقت وازدادت التحقيقات والمطالعات فإنها تأتي بسر جديد، وإن مطالعة

دقيقة حول المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والحقوق والفقه والأخلاق والقصص التاريخية والطبيعيات والتي وردت في القرآن ومقارنة ذلك بالآراء التي ظهرت خلال أربعة عشر قرناً وأصبحت قديمة اليوم، يوضح هذه الحقيقة.

وكلما تقدمت الآراء أكثر وتوسعت وتعمقت وجدت نفسها أكثر تجانساً مع القرآن، وإن كتاباً سماوياً يكون في الوقت نفسه جالباً معه معجزته الباقية يجب أن يكون حقاً هكذا.

إن أكبر أعداء القرآن الجحود والتوقف في الرؤية الخاصة بزمان معين ومرحلة خاصة كما كان أكبر مانع في معرفة الطبيعة قصور العلماء أن معرفة الطبيعة هي ما كان يفعله في الماضي أشخاص كأرسطو وأفلاطون وغيرهم.

وقد كان منذ البداية قائد الإسلام العظيم يؤكد على أن القرآن الكريم وحتى الكلمات الشاملة للرسول الأكرم نفسه ذات قابلية لا متناهية للبحث والتحقيق ولا ينبغي للرؤى أن تحدد، وكان يبين ذلك لأصحابه، وقد أشار الرسول الأكرم مراراً في كلماته إلى وجوب عدم تحديد القرآن بالرؤية الخاصة بعصر وزمان محدود حيث قال:

(ظاهره أنيق وباطنه عميق له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه)[1].

وسئل الإمام الصادق (ع): ما بال القرآن لا يزيد بالنشر والدراسة الإغضاضة؟ قال (ع):

(لأنه لم ينزل لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، ولذلك ففي كل زمان جديد، وعند كل ناس غض)[1]

وكان الرسول الأكرم يؤكد على:

(نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[2].

وقد أظهر التاريخ أن الذين جاءوا في العصور اللاحقة أبرز فهماً أعمق ونظرة أوسع في إدراك معاني أقوال الرسول ومفاهيمها.

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٥٩٩.
(٢) عيون أخبار الرضا، الطبعة الحجرية ص ٢٣٩.
(٣) أصول الكافي ج ١ ص ٤٠٣.

النسبية في الاجتهاد:

ليس تأثير الآراء المتتالية والمتكاملة في أي حال محسوساً ومشهوداً كما هو الحال في المسائل الفقهية وقد مر الفقه الإسلامي بمراحل وأطوار كانت تحكم في كل منها طريقة تفكير خاصة ونظرة معينة. فأصول الإستنباط وقواعده تختلف اليوم عما كانت عليه قبل ألف أو سبعمائة سنة، وعلماء ما قبل ألف سنة مثل الشيخ الطوسي كانوا بالتأكيد من المجتهدين البارزين وكان الناس حقاً يقلدونهم ويتبعونهم وطراز تفكيرهم وطبيعة نظرتهم واضحة تماماً من الكتب التي ألفوها في الفقه وخاصة في الأصول، فكتاب العدة للشيخ الطوسي الذي كتبه في الأصول توضح طريقة تفكيره وطبيعة نظرته موجود تحت أيدينا، ولكن ذلك النوع من النظرة وتلك الطريقة في التفكير منسوختان في نظر فقهاء العصور المتأخرة لظهور آراء أحدث وأعمق وأوسع وأكثر واقعية منها وأشغالها مكانها، كما أن تقدم العلوم الحقوقية والنفسية والإجتماعية في العصر الحالي أمكن من التعمق أكثر في المسائل الفقهية.

لو سأل سائل: هل إن علماء ذلك العهد وذلك العصر

كانوا مع تلك النظرة وتلك الطريقة في التفكير مجتهدين يحق للناس تقليدهم واتباعهم واعتبار نظرتهم مقياساً في تشخيص المقررات الإسلامية فالجواب بالإيجاب.

ثم لو سأل، لو أراد طالب أن يتجاهل جميع الكتب والتأليفات والآثار التي تخص ما بعد القرن الرابع والخامس ويفترض نفسه موجوداً في القرن الخامس ويؤدي المطالعات بنفسها التي كان يؤديها العلماء في عصر الشيخ الطوسي فيكون عنده النظرة نفسها وطريقة التفكير نفسها التي كانت عند أولئك، فهل أن شخصاً كهذا مجتهد حقيقة ويحق لجماهير الناس أن يقلدوه ويتبعوه؟ فالجواب سلبي. لماذا؟ ما الفرق بين هذا الشخص وبين الناس في القرن الخامس الفرق في أن أولئك كانوا يعيشون في عصر كانت فيه تلك النظرة، هي النظرة الوحيدة، وهذا الشخص يعيش في عصر حلت فيه نظرات أكمل محل ذلك النوع من النظرة وتلك الطريقة في التفكير فأصبح ذلك النوع من النظرة تلك الطريقة من التفكير منسوختين.

من هنا يمكننا أن نفهم جيداً أن الإجتهاد مفهوم «نسبي» ومتطور ومتكامل، وإن كل عصر وزمان يستوجب

نظرة وإدراكاً خاصاً، وهذه النسبية تنشأ من أمرين، القـابلية اللامتنهية للمصادر الإسلامية للكشف والتحقيق، والتكامـل الطبيعي للعلوم والأفكار البشرية، وهنـا يكمن سر الخـاتمبة العظيم.

الفهرس

الكتب المنتشرة للاستاذ الشهيد
مرتضى مطهري
من منشورات قسم العلاقات العامة
لمؤسسة البعثة

١ ـ إحياء الفكر في الإسلام .
٢ ـ الإمداد الغيبي في حياة البشرية .
٣ ـ الإنسان والإيمان .
٤ ـ الإنسان والقضاء والقدر .
٥ ـ حقيقة النهضة الحسينية .
٦ ـ الحياة الخالدة أو الحياة الأخرى .
٧ ـ دروس من القرآن .
٨ ـ شهيد يتحدث عن الشهيد .
٩ ـ الضوابط الخلقية للسلوك الجنسي .
١٠ ـ قصص الأبرار ج ٢ .
١١ ـ قصص الأبرار ج ٢ .
١١ ـ قصص الأبرار ج ٢ .
١٢ ـ المجتمع والتاريخ ج ١ .
١٣ ـ المجتمع والتاريخ ج ٢ .
١٤ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ١ (التقوى) .
١٥ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٢ (إحياء الفكر الديني) .
١٦ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٣ (الإجتهاد في الإسلام)
١٧ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٤ (العدل في الإسلام .

١٨ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٥ (احترام الحقوق وتحقير الدنيا) .

١٩ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٦ (مسألة الحجاب) .

٢٠ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٧ (مبدأ الإجتهاد في الإسلام) .

٢١ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٨ (استدلال القرآن على التوحيد بالحياة) .

٢٢ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ٩ (بحثاً عن الحقيقة) .

٢٣ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ١٠ (الإمام الصادق (ع)) .

٢٤ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ١١ (أصالة الروح) .

٢٥ ـ محاضرات في الدين والإجتماع مجلد ١٢ (العالم في المنظور الإلهي والمنظور المادي) .

٢٦ ـ مسائل النظام والثورة .

٢٧ ـ معرفة القرآن ج ١ .

٢٨ ـ معرفة القرآن ج ٢ .

٢٩ ـ المفهوم التوحيدي للعالم .

٣٠ ـ النبي الأمي .

٣١ ـ نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ .

٣٢ ـ الغدير والوحدة الإسلامية .

٣٣ ـ بحوث اقتصادية .

٣٤ ـ ختم النبوّة .